منظمة الجيش السري وإرهابها في تاريخ الجزائر

أ.د.رابح لونيسي*

الملخص:

إن الإرهاب لا علاقة له بدين معين كما يشاع اليوم، وإلاّ فأين نضع جرائم الإستعمار الفرنسي في الجزائر، ومختلف التنظيمات الإرهابية التي ولدت بفعل الأيديولوجية الإستعمارية مثل منظمة اليد الحمراء وتنظيمات أخرى، ومنها منظمة الجيش السري؟ فكيف تشكلت هذه المنظمة الأخيرة؟ وما هي مظاهر إرهابها؟ وما إنعكاساتها على المشروع الديغولي في الجزائر؟.

Abstract

Terrorism of secret army organization

Terrorism is not specific to a particular religion or another, when we put the crimes of colonialism and various crimes emerging from colonial ideology that was killed in Algeria, as the red hands organization and other organizations as the secret army organization , it is this organization is not the result of colonial ideology? how was formed this organization? What are these terrorists facts? What are these impacts on the Gaullist project in Algeria?.

مقدمة

بقيت كلمة OAS - أي منظمة الجيش السري- راسخة في ذاكرة الجزائريين الذين عايشوا السنوات الأخيرة للثورة، خاصة الفترة الإنتقالية الممتدة من يوم إيقاف إطلاق النار إلى الإستفتاء، خاصة سكان المدن، وبشكل أخص وهران والعاصمة،

* – أستاذ بكلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، قسم التاريخ، جامعة وهران 1، الجزائر.

وارتبطت لديهم بالرعب والإجرام، ويعود ذلك إلى العمليات الإرهابية التي قامت بها هذه المنظمة آنذاك، لكن ما لا يدركه الكثير أن إرهابها يعود إلى الإرهاب الاستعماري الممتد منذ الاحتلال الاستعماري للجزائر، فمنذ البداية مورست أعمال إرهابية، كما نجد تنظيمات إرهابية استعمارية أثناء الثورة مثل "منظمة اليد الحمراء"، فما هي الجذور الأيديولوجية لإرهاب منظمة الجيش السري ؟ وما هي ظروف ظهورها؟ وفيما تتمثل أعمالها الإرهابية؟ وما هي انعكاسات ذلك؟.

أولا– الجذور الأيديولوجية لإرهاب منظمة الجيش السري

بسبب تكثيف الأعمال الإرهابية بعد وقف إطلاق النار أعتقد الكثير أن هذه المنظمة ولدت آنذاك كرد فعل على اتفاقيات إيفيان بهدف إفشالها، لكن في الحقيقة هذا الإرهاب الأوروبي ممتد عبر التاريخ الإستعماري في الجزائر، وأتخذ عدة مظاهر وأشكال، فأحيانا يأخذ طابع إرهاب دولة، ويتم في أحيان أخرى عن طريق تنظيمات إرهابية سرية تعمل بالتنسيق مع المؤسسات الرسمية للدولة الإستعمارية، ومنها العمليات التي تقوم بها هذه المنظمات كي تتنصل المؤسسات الرسمية من مسؤولياتها، ومنها مثلا "منظمة اليد الحمراء" التي صفت الكثير من الوطنيين مثل العربي التبسي، ولهذا لا نستبعد وجود تنسيق بين منظمة الجيش السري مع بعض المؤسسات الرسمية للدولة الإستعمارية في إطار تقسيم أدوار، وهي في الحقيقة مرتبطة بجذور الإرهاب الإستعماري ككل المبني على العنصرية واحتقار الشعوب التي هي من أسس الأيديولوجية الإستعمارية التي مهدت لجرائمه.

فعندما احتلت فرنسا الجزائر كان عليها أن تبرر عملها الإستعماري أمام الرأي العام الفرنسي والأوروبي، كما كان عليها أيضا أن تنشر دافع استعماري لدى الإنسان الفرنسي، خاصة في جيشها، ولهذا عمدت منذ البداية إلى إعطاء غطاء أخلاقي

لإستعمارها بالقول أن مهمتها تمدينية في الجزائر، فنشرت الكثير من الكتب في فرنسا عن الجزائر، ووزعت بشكل كبير تصور فيها الإنسان الجزائري وتقاليده وحضارته وهويته بالتخلف الكبير والهمجية والتعصب وغيرها من الصفات كي تقنع الإنسان الأوروبي بأن فرنسا تقوم برسالة إنسانية وتمدينية في الجزائر[1]، ووصلت إلى حد إقامة معارض للمستعمرات تعرض فيه إنسان هذه المستعمرات ومنها الإنسان الجزائري بشكل متوحش كأنها حيوانات يجب ترويضها كي ترقى إلى درجة الإنسان.

كان التفكير في البداية لدى بعض منظري الإستعمار الفرنسي في الجزائر هو القيام بعملية إبادة للشعب الجزائري كما فعل الإنسان الأوروبي مع الهنود الحمر في القارة الأمريكية، وقد طرح "كلوزيل" مثلا هذه الفكرة في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، لكن خشوا من الرأي العام آنذاك، كما فكر البعض في حاجة المعمر إلى الأيدي العاملة، لكن ليس معناه عدم القيام بأعمال إبادة بهدف إخضاع السكان، بل عرفت الجزائر الكثير من الجرائم ضد الإنسانية يندى لها الجبين، فمنذ اليوم الأول للإحتلال سمح للجنود الفرنسيين القيام بأعمال النهب والقتل لدرجة أن تقطع أذن النساء لأخذ الأقراط، وكان الجنود يتسابقون إلى قطف الرؤوس مقابل مكفاءات[2]، كما أبيدت قبائل بأكملها مثل قبيلة أولاد رياح في المتيجة وقبيلة الفراشيش في جبال الظهرة بنواحي مستغانم.

وقد كتب قادة هذه المذابح كتبا ورسائل في ذلك يفتخرون بأعمالهم الإجرامية[3]، وعندما جاء "بوجو" قام بأبشع الأعمال للقضاء على مقاومة الأمير "عبد القادر"، وكانت قبائل تباد على آخرها لمجرد أن تتهم بأنها ساهمت أو ساعدت مقاومته[4]، وقد كان لقانون الآهالي الصادر عم 1873 بعد ثورة "المقراني" والشيخ الحداد وصمة عار في جبين فرنسا الإستعمارية التي تدعي الدفاع عن حقوق الإنسان،

فكان مجرد اجتماع أكثر من ثلاث أفراد أو المساس بفرنسا الإستعمارية أو الوجود بحوزة فرد سلاح أبيض ليتم التعرض إلى أقصى العقوبات ومصادرة الآراضي[5].

ولا يمكن لنا أن ننسى مجازر 8ماي 1945، والمجازر أثناء الثورة، خاصة في عهد شارل دوغول، وكذلك مجازر 17أكتوبر 1961.

ثانيا– ظروف إنشاء منظمة الجيش السري

ظهرت هذه المنظمة رسميا بعد فشل إنقلاب الجنرالات الأربعة (شال، سالان، جوهو، زيلر) ضد دوغول في أفريل 1961، والذين كانوا يرون أن دوغول قدم عدة تنازلات لجبهة التحرير الوطني، وقد تشكلت المنظمة من الكثير من العسكريين الذين هربوا من الجيش الإستعماري بعد فشل الإنقلاب، ويأتي على رأسهم الجنرال سالان، كما أنخرط فيها العديد من الطلبة عن طريق جون جاك سوزيني، ومن المفارقات إلتحاق عدد كبير من الكادحين في المجتمع الإستعماري بها، ومنهم الكثير من المتعاطفين مع الشيوعيين، وهو ما دفع مؤرخا مثل إيمانويل سيفان في كتابه "الشيوعية والوطنية في الجزائر-1920-1962" إلى القول بأن العنصرية الأوروبية ضد الجزائريين كانت أولى لدى هؤلاء من نداءات الماركسيين إلى تضامن طبقي بين جزائريين وأوروبيين آنذاك، لكن دوغول أيضا قام بأعمال إرهابية، ولم يقم بتلك التنازلات إلا بعد فشله في مشروع الحفاظ على الجزائر الفرنسية الذي هو نفس مشروع منظمة الجيش السري، إلا أن دوغول كان يتصرف بمنطق مصلحة الدولة الفرنسية على عكس منظمة الجيش السري التي كانت قصيرة النظر، فكيف ذلك؟.

فقد جاء شارل دوغول إلى الحكم في فرنسا عام 1958 بعد الإنقلاب والمظاهرات التي قادها مجموعة من الضباط الكبار في الجيش الإستعماري الفرنسي في

الجزائر بالتعاون مع الأوروبيين المتشددين الذين يرفضون أي تنازل لجبهة التحرير الوطني، فطالب هؤلاء الضباط بدعم هؤلاء بعودة دوغول إلى الحكم بهدف إنقاذ فرنسا والقضاء على الثورة الجزائرية، وشبهوا ذلك بدوره في إنقاذ فرنسا من الألمان أثناء الحرب العالمية الثانية[6].

ولم يكن مجيء دوغول إلى الحكم عام 1958 إلاّ بمهمة خاصة، وهي الحفاظ على الجزائر فرنسية والقضاء على الثورة الجزائرية بأي وسيلة كانت، ولهذا وضع العديد من المخططات ورسم إستراتيجية واضحة لذلك مبنية على ضرب الثورة الجزائرية من خلال ثلاث جبهات وهي:

الجبهة العسكرية: وضع مخطط شال القاضي بتمشيط الأرض الجزائرية شبرا شبرا انطلاقا من الغرب الجزائري إلى شرقه، وقد استعملت في هذه العمليات كل الأسلحة من بحرية وطيران ومشاة، بالإضافة إلى الحرب المخابراتية، وقد أستشهد الكثير من المجاهدين وأبناء الشعب أثناءها، ويمكن لنا القول أن أكثر من ثلثي الشهداء قد استشهدوا في عهد دوغول، وهو ما يكذب هذا الطرح الشائع لدى البعض بأن دوغول أعطى الإستقلال للجزائر.

لكن فشل مخطط شال برمته بسبب إستراتيجية الثورة التي قسمت قواتها العسكرية إلى مجموعات صغيرة سهلة الحركة[7].

الجبهة السياسية: سعى دوغول إلى إنشاء قوة جزائرية ثالثة تأخذ مكان جبهة التحرير الوطني التي كانت تعتبر نفسها الممثل الوحيد والشرعي للشعب الجزائري، واستخدم لذلك الإتصالات مع بعض الأعيان الجزائريين، بالإضافة إلى الإكثار من الإنتخابات كي يجعل من هؤلاء المنتخبين كأنهم ممثلين للشعب الجزائري، لكن عارض

الشعب الجزائري ذلك كله برمته بمقاطعته لكل تلك الإنتخابات ملبيا نداءات جبهة التحرير الوطني رغم كل وسائل القمع والإرغام التي أستخدمتها السلطات الإستعمارية لإجبارهم على المشاركة في الإنتخابات[8].

الجبهة الإقتصادية: لقد اعتبر دوغول والكثير من المنظرين الإستعماريين أن المسألة الجزائرية هي مسألة إقتصادية، وتغاضوا عن فكرة أن الشعب الجزائري يشكل أمة موحدة ويسعى إلى التحرر والإنعتاق وإنشاء دولة–الأمة الجزائرية مثل كل أمم العالم، لكن هؤلاء المنظرين ومنهم دوغول كانوا يرون أنه بمجرد أن يتحسن الوضع الإقتصادي والمعيشي للجزائريين فإنهم سيتخلون عن الثورة، ولهذا طرح دوغول مشروع قسنطينة عام 1958، والذي يحمل في طياته إصلاحات إقتصادية وإجتماعية لصالح الجزائريين مثل إعادة توزيع الآراضي على الفلاحين الجزائريين، وإيجاد مناصب شغل وحل مشكلة تمدرس الجزائريين وغيرها من الإصلاحات[9].

وأمام الفشل الذريع الذي منيت به إستراتيجية دوغول السياسية والعسكرية والإقتصادية، لجأ إلى إقتراح عدة مقترحات التي أصبحت تتوالى الواحدة تلو الأخرى على قيادة الثورة، فأحيانا يقترح ما أسماه ب"سلم الشجعان" ومعناه أن يسلم المجاهدون في الجبال أسلحتهم ويتفاوض معهم حول مستقبل الجزائر لكن دون إشراك القيادة الموجودة في الخارج، وكان يدغدغ عواطف مجاهدي الجبال والأرياف الجزائرية بصفتهم شرفاء وأبطال يكن لهم كل الإحترام، على عكس الذين كانوا في الخارج، وهدفه من ذلك هو دق إسفين بين المجاهدين في داخل الجزائر والقيادة السياسية الموجودة في الخارج، لكنه فشل في هذا المسعى[10].

وقد تفاوض مع القيادة في الخارج، لكن كانت كلها لربح الوقت، ثم أقترح مقترحات غامضة، ومنها قوله يوم 19 سبتمبر1959 بحق الشعب الجزائري في تقرير

مصيره، ثم تحدث عن "الجزائر الجزائرية"، وهذا كله لذر الرماد في العيون خاصة على الصعيد الدولي، وكان هذا كله تلاعب بالكلمات والألفاظ، لأن المشاريع التي كان يقترحها تحمل عناوين جذابة لكن تحمل في مضمونها سما قاتلا بالنسبة لمستقبل الجزائر وثورتها.

لكن عرفت الثورة كيف ترد على كل المناورات الديغولية، فأفشلت مخططه العسكري بإعادة الثورة النظر في إستراتيجيتها العسكرية بالعودة إلى تنظيم المجموعات الصغيرة وعدم المواجهة المباشرة بسبب عدم تكافؤ الأسلحة والإمكانيات، أما على الصعيد السياسي تم إنشاء الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في 19 سبتمبر1958 كرد على دوغول الذي يدعي بعدم وجود قيادة للتفاوض معها، وقد حققت هذه الحكومة إعترافا دوليا وأعطى للجزائر كيانها الدولي.

لكن أكبر ضربة تلقتها مشاريع دوغول هي مظاهرات 11ديسمبر1960، فأمام تلك المظاهرات عاد دوغول إلى فرنسا مقتنعا بفشل مشروعه، وبأن الشعب الجزائري يشكل فعلا أمة بأتم معنى الكلمة، وبأنه وراء جبهة التحرير الوطني، ويصر على تقرير مصيره وإقامة دولة–الأمة الجزائرية، ولم يبق أمام دوغول إلاّ الإعتراف بذلك والدخول في مفاوضات مع الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، لعلها تؤدي إلى الحفاظ على بعض المصالح الفرنسية في الجزائر، وقد قال دوغول في صرخة إلى الشعب الجزائري أثناء مظاهرات11ديسمبر1960 "لقد فهمتكم"، وأحسن من عبر عن تلك المظاهرات هو أحد الضباط الفرنسيين الذي وصفها ب"ديان بيان فو النفسية في الجزائر"، خاصة وأنها قد جاءت في الوقت الذي كانت السلطات الإستعمارية تقول بأنها قضت تماما على الثورة في العاصمة بعد معركة الجزائر، وأن العاصميين قد ولوا ظهورهم لجبهة التحرير الوطني.

وقد نشأت منظمة الجيش السري بعد فشل هذا المشروع الديغولي للقضاء على الثورة وإضراره للتفاوض مع جبهة التحرير الوطني وتقديم ما رآه غلاة المعمرين أنها تنازلات لجبهة التحرير، وهو ما دفع إلى قيام انقلاب الجنرالات الأربعة في أفريل1961 ضد الجنرال دوغول الذي سبق الحديث عنه، لكن بعد فشله ظهرت المنظمة رسميا بمختلف مكوناتها العسكرية والسياسية والاجتماعية التي أشرنا إليها من قبل.

ثالثا– مظاهر إرهاب منظمة الجيش السري

كانت مثلا تخصص كل يوم لشريحة اجتماعية، وتقوم بتصفية عشوائية لكل من تصادفه منها في طريقها، فيوم لسعاة البريد، ويوم لعمال النظافة، ويوم آخر للشغالات في البيوت الأوروبية اللواتي يسمون ب"الفاطمات"، كما خربت العديد من المرافق العامة كإحراق مكتبة جامعة الجزائر، وكذلك عملية ميناء العاصمة يوم 02ماي 1962، كما قتلت أطفالا في انفجار بالمدينة الجديدة بوهران وغيرها من العمليات الكثيرة جدا، واغتالت مثقفين سواء جزائريين أو أوروبيين متعاطفين مع القضية الجزائرية، ومنها اغتيال المعلمين الست بالأبيار، وعلى رأسهم الكاتب مولود فرعون الذي تلقى العديد من التهديدات من المنظمة، واستهدفت بذلك إفراغ الجزائر المستقلة من كفاءات في التعليم وغيرها من المجالات، واستندت المنظمة في أعمالها الهمجية والتخريبية على فكرة مفادها أن الجزائر بناها المعمرون، وأنها كانت صحراء قاحلة قبل الاستعمار الفرنسي لها، وإذا استقلت، فيجب تحطيم كل شيء، وإعادة الجزائر إلى ما كانت عليه من تخلف –في نظرهم–، ويدخل هذا طبعا في إطار الأيديولوجية الإستعمارية التي تقول أن مهمة الاستعمار هو تمدين الجزائريين الذين كانوا همجا من قبل–حسب نظرها–.

رابعا– انعكاسات إرهاب منظمة الجيش السري على الجزائر

توقفت هذه العمليات الإرهابية بعد اتفاق بين جبهة التحرير الوطني والمنظمة بعد وساطة قام بها جاك شوفالييه بين سوزيني والهيئة التنفيذية المؤقتة بقيادة عبد الرحمن فارس في روشي نوار (بومرداس اليوم)، وكلف شوقي مصطفاي بمتابعة المفاوضات، وتم التوصل إلى اتفاق 17جوان1962 يقضي بوقف العمليات الإرهابية مقابل الحفاظ على مصالح الأوروبيين التي كانت مضمونة أصلا وفقا لإتفاقيات إيفيان مع مطالب أخرى للمنظمة لم تر طريقها للتنفيذ بعد الضعف الذي دب في المنظمة نتيجة ضربات جيش التحرير السرية، وكذلك الجيش الإستعماري، ومنها إلقاء القبض على العديد من قياداتها، ومنها سالان بوهران. كما نشير إلى مشكلة طرحت بعد الوصول إلى اتفاق، حيث تهربت كل قيادات الثورة في الخارج من تحمل مسؤولياتها خوفا من المساس بمصداقيتها واتهامها بالإتفاق مع منظمة إرهابية، لكن أخذ كريم بلقاسم على عاتقه مسؤولية تحمل ذلك حقنا لدماء الجزائريين.

تعد الأعمال الإرهابية لمنظمة الجيش السري درسا تاريخيا اليوم لكل المتطرفين يتمثل في أن التطرف هو مدمر للذات، ويحقق عكس ما يستهدفه أنصاره، فقد قضى تطرف هذه المنظمة عليها نهائيا وعلى هدفها في الحفاظ على "الجزائر الفرنسية، كما حطمت مشروع دوغول المبني على تحويل أوروبيي الجزائر إلى قاعدة لما يسمى ب"الإستعمار الجديد" آنذاك، وذلك نتيجة هروب الأوربيين خوفا من الإنتقام وبفعل ممارسات منظمة الجيش السري الإرهابية، لكن هناك طروحات أخرى ترى بأن منظمة الجيش السري بمساهمتها في هروب الأوروبيين ، قد ضيعت على الجزائر فرصة لبقاء هؤلاء الذين من شأنهم أن يكونوا قاطرة التقدم والرقي لدولة الجزائر المستقلة، ولتقريب الفهم نقول القيام بنفس دور البيض في جنوب أفريقيا اليوم، ويعد فرحات عباس أحد أصحاب هذا الطرح لدرجة تصريحه في إحدى القنوات التلفزيونية الفرنسية في

السبعينيات في قوله: "أنني لن اغفر لمنظمة الجيش السري من جراء ما ساهمت فيه"، وهذا موضوع آخر للنقاش يدور حول تطور مسار الجزائر لو بقي هؤلاء الأوروبيين، هل فعلا سيلعبون دورا إيجابيا كما كان يرى البعض أم العكس؟.

الهوامش:

1-Olivier Le cour Grandmaison, Coloniser exteminer-sur la guerre d'etat colonial-, Casbah éditions , Alger 2005, pp29-94

2- أبو القاسم سعدالله، تاريخ الجزائر الحديث-بدايات الإحتلال-، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر1980

[3] -Saint Arnault, Lettres du maréchal saint Arnaud(1832-1854) ,Ed Michel Lévy, Paris,1858.

[4] -Mostefa Lacheraf, L'Algérie-nation et société- , Casbah éditions Alger 2006 , pp75-97.

[5] -Olivier Le Cour Grand maison, De L'indigénat-anatomie d'un monstre juridique le droit colonial en Algérie et dans l'empire française-, Saihi éditions, Alger 2011.

[6] -Albert Paul Lentin, L'Algérie des colonels-journal d'un témoin (juin-septembre1958)-, Ed Paris1958.

[7] -Claude Dufresnoy, Des officiers parlent, Ed Julliard Paris1961.

-Mohamed Teguia, L'Algérie en guerre, O.P.U Alger 1988 pp296-309.

[8] -Charles De Gaulle, Mémoires d'espoir le renouveau (1958-1962),Ed Plon,1970 .

[9] – Ibid.

[10] –Ibid.